التكامل بين الفقه والتصوف لدى علماء المغرب
"العلامة أبوبكر بن العربي المعافري (ت543 هـ) نموذجا"

الباحث: محمد بوزيان
حاصل على شهادة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، تخصص التصوف المغربي، من جامعة السلطان مولاي سليمان – بني ملال
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي، وعضو المجلس العلمي المحلي بأزيلال
المغرب

ملخص المقال

يتناول هذا البحث قضية مركزية في الفكر الإسلامي تتمثل في التكامل المعرفي بين الفقه والتصوف بوصفه أحد الملامح الأصيلة للتراث العلمي الإسلامي حيث لم تدرس العلوم الشرعية في سياق منفصل بل في إطار وحدة منهجية تجمع بين تقويم الظاهر وتزكية الباطن، وينطلق البحث من فرضية مؤداها أن العلاقة بين الفقه والتصوف ليست علاقة تعارض أو انفصال بل علاقة تلازم وتكامل يتجلى من خلالها الانسجام بين العمل بالجوارح والسلوك القلبي.

وقد اختار البحث القاضي أبا بكر بن العربي المعافري (ت 543هـ) نموذجا تطبيقيا لهذا التكامل لما يمثله من شخصية علمية جامعة بين التمكن الفقهي المالكي والانخراط الواعي في التصوف السني المنضبط بضوابط الكتاب والسنة. ويهدف البحث إلى الكشف عن الأسس المنهجية التي بنى عليها ابن العربي تصوره للتصوف وبيان تجليات البعد السلوكي والتزكوي في مؤلفاته الفقهية والتفسيرية مع إبراز موقفه النقدي من بعض الانحرافات الصوفية التي رآها خارجة عن مقتضيات الشريعة.

واعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي مدعوما بالاستقراء في تتبع نصوص ابن العربي في مصنفاته المختلفة وبالمنهج النقدي في تحليل آرائه ومواقفه وذلك من خلال قراءة تراثه في سياقه العلمي والفكري. وقد أبرزت الدراسة ان ابن العربي لم ينظر الى التصوف باعتباره علما مستقلا عن الشريعة بل عده جزءا أصيلا من البناء المعرفي الاسلامي غايته تزكية النفس وتهذيب السلوك في إطار الامتثال الشرعي.

كما بينت الدراسة ان التصوف عند ابن العربي يتسم بكونه تصوفا سنيا عمليا قائما على الأخلاق والعمل والسلوك بعيدا عن النزعات الفلسفية والباطنية وهو ما يتجلى في نقده لبعض المصطلحات والممارسات المنسوبة للتصوف التي لم يجد لها أصلا شرعيا، ويعكس هذا التوجه نموذجا مغربيا مالكيا متميزا في الجمع بين العلم والعمل وبين الفقه والسلوك.

ويخلص البحث إلى أن فكر أبي بكر بن العربي يقدم نموذجا معرفيا متوازنا في التكامل بين الفقه والتصوف يؤكد وحدة المعرفة الشرعية وتكامل فروعها ويبرز أهمية استحضار البعد القيمي والتربوي في الدراسات الفقهية بما يسهم في تجديد الخطاب الديني المعاصر وتصحيح التصورات الخاطئة التي تفصل بين الشريعة والسلوك.

مقدمة:

يعد التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية من الخصائص البارزة للفكر الإسلامي، حيث لم تكن هذه العلوم تدرس في عزلة عن بعضها، بل في إطار وحدة منهجية تجمع بين تقويم السلوك وضبط الفهم وترشيد العمل. ويأتي التكامل بين الفقه والتصوف في مقدمة هذه النماذج، باعتبار الفقه علما يُعنى بتنظيم الظاهر وتقويم السلوك العملي، بينما يهتم التصوف بتزكية النفس وتهذيب الباطن، بما يحقق التوازن بين العمل القلبي والعمل الجوارحي.

وقد تميزت المدرسة المالكية بحضور هذا البعد التكاملي، حيث اقترن الاشتغال الفقهي بالعناية بالسلوك والأخلاق، وبرز عدد من الأعلام الذين جسدوا هذا التلازم بين الشريعة والحقيقة. ويعد القاضي أبو بكر بن العربي المعافري (ت 543هـ) من أبرز هؤلاء، إذ جمع بين التمكن في الفقه وأصوله، والانخراط الواعي في التصوف السني المنضبط بضوابط الكتاب والسنة، مما يجعل فكره نموذجا دالا على التكامل المعرفي بين هذين المجالين.

ويعد الإمام مالك رحمه الله أول من اخترع مبحثا خاصا بالسلوك والتزكية في آخر كتابه الموطأ، وسماه كتاب الجامع، واقتدى به باقي فقهاء المذهب وانفردوا به من بين جميع المذاهب الفقهية، كما نبه إلى ذلك الإمام القاضي ابن العربي الإشبيلي، والإمام شهاب الدين القرافي وغيرهم.

وكتاب الجامع هذا، بيَّن أغراضَه وأهدافه القاضي أبو بكر بن العربي المعافري في كتابه " القبس في شرح موطأ مالك بن أنس"؛ حيث قال رحمه الله في أول كتاب الجامع: "هذا كتاب اخترعه مالك رحمه الله في التصنيف لفائدتين: إحداهما أنه خارج عن رسم التكليف المتعلق بالأحكام التي صنفها أبوابا ورتبها أنواعا، والثانية أنه لما لحظ الشريعة وأنواعها، ورآها منقسمة إلى أمر ونهي، وإلى عبادة ومعاملة، وإلى جنايات وعبادات، نظمها أسلاكا، وربط كل نوع بجنسه، وشذت عنه من الشريعة معان مفردة، لم يتفق نظمها في سلك واحد؛ لأنها متغايرة المعاني، ولا أمكن أن يجعل لكل منها بابا لصغرها، ولا أراد هو أن يطيل القول فيما يمكن إطالة القول فيها، فجمعها أشتاتا، وسمى نظامها كتاب الجامع، فطرق للمؤلفين ما لم يكونوا قبل ذلك به عالمين في هذه الأبواب كلها".1

من خلال نص العلامة أبي بكر بن العربي المعافري، يتضح أن مالكا رضي الله عنه بعد رسمه التكاليفَ المتعلقة بالأحكام الواجبات، والتي لابد من معرفتها، انتقل إلى قسم النوافل، وهي كثيرة متنوعة، منها ما يتعلق بتطهير النفس وتزكيتها بالفضائل والأخلاق وكل سلوك محمود، مما يسعى لأجله أهل التصوف، وسيتطور فيما بعد مع بعض العلماء، ويعملون على إغنائه وبلورته وتطويره، ويفردونه بالتأليف في مؤلفات خاصة[2].

وقد اقتدى المالكية رحمهم الله بالإمام مالك بإدراج كتاب الجامع في آخر مصنفاتهم الفقهية، منهم العلامة القرافي في الذخيرة، وابن أبي زيد القيرواني في مختصر المدونة، والقاضي عبد الوهاب البغدادي في كتابه "التلقين"، والعلامة أبو بكر ابن العربي المالكي المعافري في كتابه "القبس شرح موطأ مالك بن أنس."

فلنأخذ مثالا من هذه الكتب الجوامع، أولها كتاب "الذخيرة" للعلامة القرافي رحمه الله، فقد ذكر أن هذه الكتب الجوامع تختص بثلاثة أشياء: العقيدة، والأقوال والأفعال، يقول متحدثا عن الأفعال:" وهي أنواع: أفعال القلوب، وهي مأمورات ومنهيات، فمن المأمورات: الإخلاص، واليقين، التقوى، والصبر، والرضا، والقناعة، والزهد، والورع، والتوكل، وسلامة الصدر، وحسن الظن، وسخاوة النفس، ورؤية المنة، وحسن الخلق، ونحوها من أعمال القلوب".[3]

من خلال هذا النص نستنتج أن هذه القيم والأخلاق التي ذكرها العلامة القرافي في هذا الكتاب هي نفسها مباحث الصوفية؛ إذ غرضهم تزكية النفس عن طريق تربيتها على قيم الإخلاص والصبر واليقين والرضا ... مما استعرضه القرافي رحمه الله. كما نستخلص توضيح العلاقة الوطيدة بين الفقه والتصوف عند علماء الإسلام وخصوصا المالكية منهم

الإشكالية

وتنطلق هذه الدراسة من **إشكالية** مركزية مفادها: كيف تجلى التكامل المعرفي بين الفقه والتصوف في فكر أبي بكر بن العربي المعافري، وما حدوده وضوابطه المنهجية؟ ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الجزئية، من قبيل تحديد الأسس العلمية التي بنى عليها ابن العربي تصوره للتصوف، والكشف عن ملامح المنهج السلوكي الذي دعا إليه، وبيان موقفه النقدي من بعض الانحرافات الصوفية.

أهمية البحث

وتكمن أهمية هذا البحث في إبراز نموذج علمي مغربي أصيل في الجمع بين الفقه والتصوف، وفي المساهمة في تصحيح بعض التصورات التي تفصل بين العلم والعمل، أو تنظر إلى التصوف باعتباره علما منفصلا عن الشريعة. كما يسعى البحث إلى تقديم قراءة علمية متوازنة لفكر ابن العربي، تكشف عن بعده الإصلاحي والنقدي في مجال السلوك والتزكية.

أهداف البحث

ويهدف هذا البحث إلى الوقوف على معالم التكامل بين الفقه والتصوف في مؤلفات أبي بكر بن العربي، وتحليل أسسه المنهجية، وبيان تجليات التصوف السني العملي في فكره، مع رصد مواقفه النقدية من بعض الممارسات والمفاهيم الصوفية.

المنهج المتبع

ولتحقيق هذه الأهداف اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستعانة بالمنهج الاستقرائي في تتبع النصوص، والمنهج النقدي في تحليل المواقف والآراء، وذلك من خلال قراءة أعمال ابن العربي في الفقه والتفسير والتصوف في سياقها العلمي والفكري.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى محاور كبرى تناولت التعريف بأبي بكر بن العربي وسياقه العلمي، ثم إبراز مظاهر التكامل بين الفقه والتصوف في فكره، وصولا إلى بيان منهجه في التصوف وضوابطه الشرعية، لتنتهي الدراسة بخاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المحور الأول: تعريف العلامة أبي بكر بن العربي المعافري رحمه الله:

عرفه صاحب كتاب وفيات الأعيان بقوله:" أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد، المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي الحافظ المشهور؛ ذكره ابن بشكوال في كتاب " الصلة " فقال: هو الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها... رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد مستهل شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة وأنه دخل الشام ولقي بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي وتفقه عنده، ودخل بغداد وسمع بها من جماعة من أعيان مشايخها، ثم دخل الحجاز فحج في موسم سنة تسع وثمانين، ثم عاد إلى بغداد وصحب بها أبا بكر الشاشي وأبا حامد الغزالي وغيرهما من العلماء والأدباء، ثم صدر عنهم، ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدثين فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين، وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق. وكان من أهل التفنن في العلوم والإبحار فيها والجمع لها مقدما في المعارف كلها متكلما في أنواعها نافذا في جميعها، حريصا على أدائها ونشرها... واستقضي ببلدة فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، ثم صرف عن القضاء، واقبل على نشر العلم وبثه"[4] ويضيف ابن بشكوال قائلا:" وسألته عن مولده فقال: ولدت ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة (468) وتوفي بالعدوة ودفن بمدينة فاس في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، (543 هـ) رحمه الله تعالى".[5]

أهم مؤلفاته:

لابن العربي رحمه الله مؤلفات كثيرة منها:

- أحكام القرآن.
- قانون التأويل.
- الناسخ والمنسوخ.
- القبس شرح موطأ مالك ابن أنس.
- المسالك على موطأ الإمام مالك.
- عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي.
- مصافحة البخاري ومسلم.
- شرح غريب الرسال
- العواصم من القواصم
- المحصول في أصول الفقه.
- كتاب آداب المعلمين.

وفي التصوف له كتابان معروفان:

- سراج المريدين في سبيل الدين، وسراج المهتدين في أدب الصالحين.
- ومن كتب العلامة ابن العربي في التصوف التي لم تصلنا كتاب الفقراء، وكتاب الذكر، وكتاب العقد الأكبر، للقلب الأصغر.

وهذه الكتب سنجعلها موضوع المحور التالي الذي عنونته بأدلة تصوف ابن العربي رحمه الله.

المحور الثاني: أدلة تصوف ابن العربي رحمه الله

الدليل الأول: تأليفه كتبا خاصة في التصوف

ألف ابن العربي رحمه الله كتبا خاصة في هذا العلم، منها ما هو مطبوع متداول ومنها ما هو مخطوط يحتاج للتحقيق ومنها ما لم يصلنا، ولكن أحال عليه ابن العربي رحمه الله في كتبه الأخرى، وسنخصص هذا المبحث للحديث عن هذه الكتب:

الكتاب الأول: سراج المريدين في سبيل الدين. هذا الكتاب طبعته دار الحديث الكتانية، بتحقيق الدكتور عبد الله التوراتي، أستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط، في أربعة أجزاء، كما طبعته دار ابن حزم، في ستة أجزاء، بعناية ودراسة الدكتورة عصمت دندش.

هذا الكتاب يعد كتابا في سلسلة مؤلفات العلامة أبي بكر بن العربي في مجال إصلاح العلوم وتجديدها؛ فقد جعل علم التصوف القسم الرابع من العلوم، وقد وسمه بـ **"علم التذكير"**، وهو اسم لم يكن متداولا لعلم التصوف قبل ابن العربي رحمه الله، والعلوم التي عني بإصلاحها رحمه الله هي:

القسم الأول علم التوحيد، والقسم الثاني علم الناسخ والمنسوخ، والقسم الثالث أحكام القرآن، والقسم الرابع التذكير، والقسم الخامس التفسير.

واسم الكتاب كاملا هو: "سراج المريدين في سبيل الدين، لاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية؛ بالأدلة العقلية والشرعية؛ القرآنية والسُّنية، وهو القسم الرابع من علوم القرآن في التذْكير".

وقد قسم الكاتب –رحمه الله– الكتابَ إلى قسمين:

الباب الأول: الباب الأوَّل: المقامات، وهي أربع مقامات.

الباب الثاني: الأسماء والصفات، وهي مائة وخمسة وعشرون اسمًا وصفة

يقول الدكتور عبد الله التوراتي محقق هذا الكتاب: "وظهرت في هذا الكتاب معرفتُه العميقة بعلم التصوف، وإدراكه لمقالات الصوفية، وغوصه على مقاصدهم وغاياته". [6]

وفي هذا الكتاب، "**ستظهر صوفية القاضي أبي بكر بن العربي بوضوح تام**، ومنهجه السلوكي السني، مع ذكره لمجموعة من مشايخه الصوفية ممن تأثر بهم من علماء المغرب الكبير أثناء توقفاته في طريق رحلته مع والده نحو المشرق، أو حين استقراره بالمشرق خلال رحلته".

الكتاب الثاني: سراج المهتدين في آداب الصالحين، تحقيق وتخريج وتعليق الشيخ محمد الأمين بوخبزة طبع دار ابن حزم سنة 2009م، ومنه نسخة مخطوطة تامة بخزانة دار الكتب الناصرية بتمكروت في مدينة زاكورة.

تناول الكتاب عدة فصول في الآداب والمواعظ، تضمنت كثيرا من الأحاديث والآثار، أشار في بعضها إلى أسماء الله الحسنى، كالمحب – وهو الاسم الثالث والأربعون–، وتحدث عن المحبة في الشرع... ثم تكلم عن معنى الرضى –وهو الاسم الرابع والأربعون–، ثم عن الراعي، والوالي، والسائح. والزكي، والشفيع، والمتواضع، والطيب، والعظيم، والمفلح، والمتبتل، والخاشع... وشرحها جميعها شرحا موسعا، وختم الكتاب بأدعيته –صلى الله عليه وسلم –في سائر أحواله، وباستعاذته عليه السلام". [7]

وله كتب **أخرى في التصوف** غير مطبوعة ومنها ما لم يصلنا لا مطبوعا ولا مخطوطا، لكنه –رحمه الله–ذكر في كتبه المطبوعة أنه كتب هذه الكتب، ومنها:

كتاب الفقراء: أي المتصوفة ذكره في أحكام القرآن، يقول مثلا: "وذلك أن للتقوى أقساما بيناها في كتاب **الفقراء**؛ ومنها واجب، و [منها] ما ليس بواجب؛ فلينظر هنالك". [8]

وكتاب الذكر ذكره أيضا في كتابه أحكام القرآن. [9] و**كتاب العقد الأكبر، للقلب الأصغر**، ذكره المقري في نفح الطيب. [10] وكتاب الأمد الأقصى في أسماء الله الحسنى [11]

الدليل الثاني: أنه تتلمذ على كبار الصوفية كالإمام أبي حامد الغزالي

رحل ابن العربي –رحمه الله– إلى المشرق رفقة والده، وفي هذه الرحلة تتلمذ على يد الإمام الغزالي، وسمع عليه كتاب " الإحياء".

ويحدثنا –رحمه الله– عن أول لقاء له بالإمام الغزالي حيث يقول: "وقلت له: أنت ضالتنا التي كنا ننشد، وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة... فلما طلع ذلك النور، وتجلى ما كان تغشانا من الديجور، قلت: هذا مطلوبي حقا، هذا بأمانة الله منتهى السالكين، وغاية الطالبين. [12]".

وذكر صاحب كتاب أنس الفقير أن ابن العربي أخذ التصوف عن شيخه الغزالي: " قال –أي أبو مرزوق التلمساني –ألبسني بلال خديم الشيخ أبي مدين، قال ألبسني أبو مدين، قال ألبسني أبو الحسن ابن حرزهم، قال: ألبسني القاضي أبو بكر بن العربي، قال: ألبسني أبو حامد الغزالي. قال: ألبسني إمام الحرمين أبو المعالي، عن أبي طالب مكي، عن أبي القاسم الجنيدي عن السري السقطي، عن معروف الكرخي".[13] إلى آخر السند.

ولم يقتصر العلامة ابن العربي رحمه الله على الأخذ على يد الإمام الغزالي –رحمه الله–ح بل أخذ عن كثير من شيوخ التصوف، يقول في هذا الصدد" ... وأفنيت عظيما من الزمان في طريقة الصوفيين.

ولقيت رجالاتهم في تلك البلاد أجمعين، وما كنت أسمع بأحدهم يشار إليه بالأصابع، أو تثنى عليه الخناصر، أو تصيخ إلى ذكره الآذان، أو ترفع إلى منظرته الأحداق، إلا رحلت إليه قصيا، أو دخلت إليه قريا".[14]

ومن الشيوخ الذين لقيهم ابن العربي –بعد الغزالي–عطاء المقدسي، شيخ الفقهاء والصوفية –كما يسميه. لقيه بالمسجد الأقصى، يقول عن هذا اللقاء: "قال لي: أين أعين البكاء، وأين أسباب الاشتياق إلى المولى لا إلى اللوى؟ وأصل البكاء إنما هو على فقد المحبوب، أو نزول المكروه، وأي محبوب أعظم من الله وطاعته؟ وأي مكروه أصعب من سخط الله؟".[15]

الدليل الثالث: أنه أقر بصريح العبارة بتصوفه في مؤلفاته المختلفة

من أمثلة ذلك كتاب "القبس"؛ إذ نجده يتناول فيه مباحث شيقة في غاية الأهمية، الشأن فيها أن تسهم في تزكية النفس وتطهير القلب، ومنها مسألة الذكر، والذي يعد مخ العبادة عند رجال التصوف، قال فيه: " وأما الباب الثالث: في الكلام بغير ذكر الله تعالى، فإن مالكا رضي الله عنه عقده عقدا بديعا **لنكتة صوفية**. وذلك أن اللسان عبد الله، فلا ينبغي أن يذكر سواه، فتكون خدمة عبد لغير مولاه، وهذا هو أصل الدين، والذي عليه كافة المسلمين"[16].

وفي أحكام القرآن يستشهد بكلام الصوفية كثيرا ويؤيدهم، وينقل أحيانا عنهم بعضا من التفسير الإشاري مع استحسانه، وقد بلغ عدد المرات التي ذكر فيه التصوف بلفظ في كتابه "الأحكام" ما يقارب أربعين مرة ناهيك عن ذكره بألفاظ أخر كالفقراء، والفقراء المقصود بهم المتصوفة، وكان كثير النقل من تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، وينقل عنهم بألفاظ مختلفة: قال شيوخ الصوفية، قال أرباب القلوب، قال شيوخ الزهد، قال شيوخ المعاني.[17]

ومن أمثلة ذلك:

يقول: "المسألة الثالثة: أيُّ العملين أفضل: التفكر أم الصلاة؟[18]: اختلف في ذلك الناس، فصغوا؛ أي ميل الصوفية إلى أن الفكرة أفضل، فإنها تثمر المعرفة، وهي أفضل المقامات الشرعية".[19]

بل يستشهد بالتفسير الإشاري: يقول في تفسير سورة يوسف " ولذلك قال **علماء الصوفية**: إن فائدة قوله تعالى: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا"[20] أن الله أعطاه العلم والحكمة إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة".[21]

ويستشهد بكلام الصوفية تحت اسم الفقراء كثيرا ومن ذلك في سورة البقرة بعد أن ذكر تجويز الفقهاء للتجارة في الحج والعمرة: "وأما ألا يتجر فيهما فهو مذهب **الفقراء** ألا تمتزج الدنيا بالآخرة، وهو أخلص في النية وأعظم للأجر، وليس ذلك بحرام؛ والكل يبين في موضعه بحول الله وعونه".[22]

المحور الثالث: منهجه في التصوف

يرى ابن العربي – رحمه الله– أن التصوف يجب أن يكون موافقا للكتاب والسنة، وإلا فلا قيمة له، ولذلك انتقد بعض الممارسات التي عدها دخيلة على التصوف، فابن العربي – رحمه الله– كان متصوفا فقيها مالكيا على نهج المغاربة في التصوف، وأعني بذلك التصوف السني العملي، القائم على الكتاب والسنة، والمتميز بالعمل؛ أي: الأخلاق من قبيل الكرم، والبذل، وتهذيب النفس، وتزكيتها ..الخ بخلاف المشرق الذي ظهرت فيه تيارات صوفية تنهل من فلسفات أخرى غير إسلامية (حسب ابن العربي)، أو مذاهب منحرفة – حسبه– كالباطنية، وهذا الأمر بالذات انتقده ابن العربي كثيرا، ورفض بعض المصطلحات الصوفية كالعشق، و الإشراق، و الفيض... كما رفض بعض الممارسات مثل لبس المرقعة. فابن العربي –رحمه الله ينتقد الصوفية، ومنهم شيخه الغزالي في استعمالهم لهذه المصطلحات ومن أمثلة ذلك:

مصطلح العشق، فالغزالي يرى أن المستحق للمحبة هو الله وحده، فلا محبوب بالحقيقة ولا معشوق إلا الله دون سواه وهو حب لا يدركه إلا ذوو البصائر، وهكذا بنى العشق على المحبة وذكره كثيرا في كتابه الإحياء،[23] حيث يرى أن الله تعالى موضوع الجلال والكمال فكيف لا يعشق، ويرد عليه ابن العربي بأن هذا الاصطلاح لم يرد في ألفاظ الشريعة وليس له أصل فيها حتى إن المحبة التي هي دون العشق مرتبة لولا أن الله تعالى أطلقها على نفسه ما أطلقناها فكيف يجوز تعديها إلى سواها.[24]

الإشراق، أو المعرفة القلبية، يرى الغزالي وكثير من الصوفية أن القلب من مصادر المعرفة إضافة إلى العقل؛ حيث ذهب إلى أن مشكلة المعرفة لا تتضح عن طريق الاستدلال بل هي إشراق نوراني يسطع على القلوب وتتجلى به الحقائق والمعارف، فالتصفية مبدأ والإشراق غاية، وقد انتقد ابن العربي هذا التوجه كثيرا في كتابه "العواصم من القواصم"، فلم يرض للغزالي مثل هذا الرأي الذي لمس فيه نزعة صوفية متطرفة ومنحى باطنيا. [25]

انتقاده لبعض الصوفية في قضية لبس المرقعة من غير ضرورة: فهو يرى: «أن لبس المرقعة كان شعار الصالحين، وسنة المتقين، حتى اتخذته الصوفية شعارا، فجعلته من الجديد، وأنشأته مرقعا من أصله، قال: وليس هذا بسنة، بل بدعة عظيمة، وأدخل في باب الرياء.[26]

خاتمة

أسفر هذا البحث عن جملة من النتائج العلمية التي تؤكد مركزية التكامل المعرفي بين الفقه والتصوف في فكر القاضي أبي بكر بن العربي المعافري، وتبرز ملامح مشروعه العلمي والمنهجي في هذا المجال. ويمكن إجمال أهم النتائج فيما يأتي:

أولا: النتائج

1. يثبت فكر أبي بكر بن العربي أن العلاقة بين الفقه والتصوف علاقة تكامل لا تعارض، تقوم على الجمع بين ضبط الظاهر وتزكية الباطن في إطار المرجعية الشرعية.
2. يؤكد ابن العربي أن التصوف الحقيقي جزء أصيل من البناء العلمي الاسلامي، وليس علما مستقلا عن الشريعة أو مناقضا لها.
3. يتجلى التصوف السني العملي في مؤلفات ابن العربي الفقهية والتفسيرية من خلال عنايته بقضايا السلوك والأخلاق وتزكية النفس.
4. اتسم موقف ابن العربي من التصوف بالوعي النقدي، حيث ميز بين التصوف المنضبط بالكتاب والسنة، وبين الممارسات والمفاهيم التي عدها دخيلة أو منحرفة.
5. يعكس مشروع ابن العربي نموذجا مغربيا مالكيا في التصوف، قائما على العمل والسلوك، بعيدا عن النزعات الفلسفية والباطنية.
6. يكشف تراث ابن العربي عن تصور مقاصدي يجمع بين العلم والعمل، ويؤكد وحدة المعرفة الشرعية وتكامل فروعها.

ثانيا: الاقتراحات

1. الدعوة إلى اعتماد مقاربة تكاملية في دراسة التراث الفقهي، تستحضر البعد السلوكي والتربوي إلى جانب البعد التشريعي.
2. تشجيع البحث العلمي في مؤلفات أبي بكر بن العربي المتعلقة بالتصوف، مع تحقيق ما لم يحقق منها تحقيقا علميا رصينا.
3. الإفادة من النموذج التكاملي الذي قدمه ابن العربي في تجديد الخطاب الديني المعاصر، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة والسلوك.
4. إدماج البعد القيمي والتزكوي في مناهج التعليم الشرعي، استلهاما من التصور المالكي في الجمع بين الفقه والتصوف.
5. فتح آفاق البحث المقارن بين نماذج علماء المغرب في التكامل بين الفقه والتصوف، لإبراز خصوصية المدرسة المغربية في هذا المجال.

الهوامش:

[1]. القبس شرح موطأ مالك بن أنس، أبوبكر بن العربي المعافري، تحقيق، محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1992، ص 1082.

[2]. ومن الذين نهجوا نفس المنهج الإمام ابن عاشر رحمه الله: حيث قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام: العقيدة، والفقه، ثم التصوف، وهو في ذلك يقتدي بفقهاء المذهب.

[3]. الذخيرة، الإمام شهاب الدين القرافي، تحقيق محمد بوخبزة، وسعيد أعراب، ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي 1994، ج 13، ص 244.

[4]. وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1972ج 4، ص 297.

5. نفسه، ج 4، ص 298.

[6]. وفيات الأعيان، ابن خلكان، مصدر سابق، ج 4، ص 299.

[7]. ينظر كتاب: سراج المهتدين في آداب الصالحين، لأبي بكر ابن العربي المعافري، تحقيق وتخريج وتعليق الشيخ محمد الأمين بوخبزة طبعة دار ابن حزم سنة 2009م.

[8] أحكام القرآن، ابن العربي المعافري، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2018. ج 3 ص47.

[9]. نفسه، ج4، ص 395.

[10]. نفح الطيب، المقري، دار صادر للطباعة والنشر 2015، ج 2، ص242.

[11]. يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2670ك

[12]. قانون التأويل، أبوبكر بن العربي المعافري، تحقيق محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة، الطبعة: الأولى، 1406 هـ -1986، ص 14-15.

[13]. أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط، 1965م، ص 93.

[14]. قانون التأويل، ابن العربي، مصدر سابق، ص 19.

[15]. سراج المريدين، أبوبكر بن العربي دار الحديث الكتانية، الطبعة الأولى 2017. ص 57.

16. القبس، ابن العربي، مصدر سابق، ص 1170.

17. أحكام القرآن، ابن العربي، مصدر سابق، ج3، ص 1180.

18. المقصود بالصلاة أي النافلة لا الفريضة.

19. أحكام القرآن، ابن العربي، مصدر سابق ج 2، ص 353.

20. سورة يوسف، 22.

21. أحكام القرآن، ابن العربي، مصدر سابق ج 3، ص48.

[22]. نفسه، ج،1، 277ص.

[23]. انظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، طبعة دار ابن حزم، بيروت، 2005م. مثلا الجزء الثاني الصفحة 224، والجزء الرابع ص 500.

24. سراج المريدين، ابن العربي مصدر سابق، ص 106.

25. انظر؛ العواصم من القواصم، ابن العربي، مصدر سابق، ج 1، ص14 وما بعدها.

26. عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي، ابن العربي، دار أسفار الكويت 2023م، ج 7، ص 276.